وثبة الشرق

بحث
فى أن العقلية التركية الحديثة هى مثال العقلية السليمة
التى يجب أن ينتحلها الشرق
ليجارى سير الحضارة العالمية

لا أظن أن من الأقوال التى صدرت عن حكماء الغرب وكتابه قول هو أبعد عن محجة الصواب من قول الكاتب « ولز » — « الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا » — فانها كلمات أملاها غرور له مبرراته ، واعتداد بالنفس له نتائجه ومقدماته . على أن هذا القول لا يدل على شىء بقدر ما يدل على ضيق فى النظر وحرج فى النفس ، سببه حالات قامت فى الشرق ناظرتها حالات ارتقائية قامت فى الغرب ، فقعدت حالات الأول به عن اللحاق بالحد الذى وصل اليه الثانى.

على ان محور هذا القول يدل على عقلية تلزم صاحبها الاعتقاد بان الشرق لن يستطيع أن ينتحل عقلية الغرب ليلتقى الاثنان فى ميدان الجهد الانسانى . ولا جرم أن هذا خطأ كبير وتعميم خطير النتائج بعيد الأثر فى الاذهان : وهو بعد كل التعميمات الفلسفية والاجتماعية والاحكام العامة الرنانة ، تظن بعيداً ولكنك لا تجد لها من حقيقة مادية ترتكز عليها . ولعمرك كيف يمكن أن يقبل حكم كهذا الحكم ويؤخذ على أنه قاعدة ثابتة، وأنت لو رجعت الى التاريخ القديم لوجدت أن اليونان كان لهم الحق فى أن يقولوا نفس هذا القول عن الشرق ، وان الشرق قد مرت به أدوار لا دور واحد ، كان من حقه أن يقول فيه أكثر من هذا فى الغرب وفى أوروبا بالذات ! إذن فهو تعميم لا قيمة له من جهة الواقع، وانه كانت له مبررات زمانه ، وظواهر لا يمكن نكرانها فى هذا العصر . وأنت اذا رجعت الى حالات اليوم والسابقة التى قال فيها « ولز » هذا القول وقستها بحالات الشرق فى هذا العصر ، لوجدت أن مبررات هذا القول أخذت تتضاءل وتزول أهميتها شيئا بعد شىء . ولا نبالغ اذا قلنا بان هذه الكلمة التى طنت فى أوروبا وتجاوبت بها أنحاء الشرق زمانا كادت تصبح من الاقوال المنبوذة . بل أصبحت صورة حفرية لعقلية قامت فى الغرب فى الزمان الذى كان المريض العثمانى ملقى فيه على فراش المرض ، والامبراطورية التركية آخذة فى سبيل الانحلال ، ومصر مستسلمة لحكم الغاصبين ، والهند مشغولة بحز بياتها

الدينية ، وفارس خاضعة لنفوذ روسيا ، والافغان راتعة فى جهالها منقطعة عن عمران الحضارة ، وشمال أفريقية نهب للجشع الفرنسوى من ناحية ، وسوء الادارة التركية من ناحية أخرى ، وسوريا وفلسطين والعراق مستنبات فى سبات عميق ، كأن الفلك مادار من حولهن ، وكأن عجلة الزمان مالفت على أهل هذه البلاد .

ولاشبهة فى أن هذه الحالات قد تغيرت الآن فتغيرت معها تلك العقلية التى أملت هذه الكلمات . ويكفيك أن تعرف أن السلطات الاستعمارية أخذت تعترف شيئاً بعد شىء بحق الشعوب الشرقية فى الحياة ، مجبرة على ذلك بحكم المقتضيات التى تلزم الناس والشعوب على تغيير عقلياتها وأساليبها خضوعاً لحكم الظروف ، ابتغاء الموازنة بين الحاجات والضرورات

ولقد مرت باوروبا برهة من الزمان اعتقد فيها المفكرون ان الدين الاسلامى زائل يوما من الايام وان العقلية الشرقية لن تخرج من تلك الدائرة الضيقة التى رسمها الفقهاء خلال القرون . فظهر أثر هذه العقيدة الغربية فى السياسة الدولية وعملت الدول الاوروبية على تقسيم الامبراطورية العثمانية الى مناطق نفوذ تختص كل دولة بمنطقة منها وتكون من حصتها عند تقطيع أوصال الغنيمة اذا ماحان لذلك الوقت الملائم . ولقد تمزقت الامبراطورية العثمانية كما تمزقت الامبرطورية النمساوية . ولكن من من الاوروبيين يستطيع اليوم ان يدعى أن الشعوب التى انفصلت عن الامبراطورية العثمانية أقل شعوراً بحقها فى الحياة ، من الشعوب التى انفصلت عن الامبراطورية النمساوية ؟

لقد اعترف للشرق بحق الحياة . واعترف الاكثرون انه قد يلتقى الشرق والغرب فى ميدان الجهاد الانسانى . فلنعمل اذن على تحقيق ذلك فى أكبر دائرة من الامكان .

. . .

لانكران مطلقاً فى أن العقلية التى نشأت فى الشرق ، ونقصد به آسيا فى الغالب هى العقلية التى لاتلائم مزاج هذه الحياة . هى العقلية التى لاتتسق وحاجات هذه الحياة الدنيا . بل أنت اذا قلبت أوجه النظر فى هذه العقلية الفيتها تلائم من كل نواحيها الحياة الاخرى . نكران لكل مطالب الحياة ، وتواكل على القضاء والقدر ، واستسلام صرف لما سوف يأتى به الغد ، واغفال محض لمواعظ الماضى وعظاته . هى عقلية توافق المزاج الانسانى فى غرارته الاولى وبساطته وأساطيره ، عندما أخذ فجر العقل

يتنفس من خلال الظلمات الاولى . ولقد عيب على الشرق أن يكون هذا حال عقلية أهله ! وفى الحق أن الشرق يجب أن يعاب عليه تواكله واستسلامه للمقادير وخضوعه لامرائه من ناحية ، ورجال الدين والفقهاء من ناحية أخرى. غير أن أخذ الشرق بهذه المناقص الكبرى من غير تعليلها تعليلا يظهر حقيقتها ، غبن فاحش على الشرقيين ، واستسلام الشرقيين لمثل هذه التهمة الشنعاء أمر يعابون عليه أكثر مما يعاب عليهم توارثهم لمثل هذه العقلية منذ أبعد عصور التاريخ .

كان الشرق مهد الانسان ، فيه ظهرت جماعاته الاولى، وفى وديانه الخصيبة نشأت الحضارات البدائية التى جاهد الانسان فى سبيل الفوز بها وتناحر من أجلها مع وحوش الغابات وميكروبات الماء والهواء والطفيليات ، وجالد العناصر الطبيعية وقواسر المناخات المختلفة ، حتى استطاع فى النهاية أن يستقوى عليها جميعا ، فيرث الارض ومن عليها، ويشيد تلك الحضارات العجيبة تتلو احداها الاخرى كأنها فى ظلال التاريخ أشباح مردة من الجن أو جبابرة من الخيال تتصارع فى أفق الروايات الانسانية صراع الكواسر عضها الجوع أو أخذتها غضبة الانانية . فتلوح كأنها فى ميدان حرب تتناوب فيه الغلبة حيناً والانكسار حيناً آخر ، وأنت بين هذا وذاك ترى المدنيات تنشأ تدرجاً وتقوم لماماً على المسرح الانسانى ، ثم لاتلبث أن تراها تنهار وتتقوض دعائمها ، كما لو كانت جدراناً متداعية ، وضع الفأس فى أصولها جبار قوى الأصلاب

ترى هل كان غير الشرق من بقاع الكرة الارضية ميداناً لمثل هذا الصراع ؟ وهل كان غير الشرق مسرحاً لتغالب هذه القوى وتفانيها ؟ هل كان غير الشرق مهداً للجماعات الانسانية الأولى ؟ كلا . ففى ذلك الوقت الذى جالدت فيه جماعات الانسان الاولى الوحوش والعناصر لتفوز بالغلبة عليها فى أنحاء الشرق ، كانت بقية الكرة الارضية ملكا لغيره من الحيوانات العليا من ذوات الثدى . غير أننا نتساءل وقد نشأ الانسان نشأته الاولى ضعيفاً فى القوة البدنية . بل حيواناً شجرياً بسيطاً من حيث القيمة الجثمانية ، كيف استطاع أن يتغلب مع هذا على غيره من الحيوانات الكبيرة ؟ استطاع أن يتغلب عليها بكفاءاته العقلية التى نشأت فيه على مر الازمان واستطاع بها أن يتغلب على غيره . فلما احتاج الى زيادة استعمالها نمت وكبرت مع الزمان

وتطورت نشوءاً على مدى الاحقاب . وفى هذا الطور ، الطور الذى بدأ الانسان يدرك فيه أنه سيد المخلوقات وأنه يمتاز عليها بقوة العقل ، بدأ طور الفلسفة على قدر ما استطاع الانسان أن يدرك من حقائق الموجودات . وكانت النشأة الاولى بالضرورة من موضوعات تفكيره . فقد رأى الحياة يتلوها الموت والموت تتلوه الحياة على التعاقب والتواتر ، ففكر فى تخيل ثم استوى على الصورة اللاهوتية الاولى التى هى أول مدارج العقل الانسانى فى تقسيم كونت ، لصور النشوء الفكرى فى الانسان .

وكان من تاج ذلك أن يختص الشرق بوراثة متأصلة فى تضاعيف فطرته وحاجة لاشعورية جرى عليها ، هى الحاجة الى القيادة الروحية والاستسلام اليها فنشأت عن ذلك صور متخالطة من صور الميثولوجيا دارت كلها حول الخلق والعدم والحياة الاخرى . وكان من الضرورى ، مادامت الحياة فوق هذه الارض لادوام لها وكانت باقية فى العالم الثانى ، أن ينصرف اللاهوت فى الشرق ناشئاً عن الميثولوجيا القديمة الى الحياة الاخرى ، وأن يبشر بهذه الاسطورة لاهل الشرق . ولكن العجب أن يظل الشرق عاكفاً عليها ، فى حين أن الغرب يتغلب ويستقوى عليها فيفوز الغرب بالحياة ويفوز الشرق بخيال الآخرة . هذا مع اليقين بأن الغرب قطعة من الشرق انفصلت عنه ، كما انفصل القمر عن الارض منذ بداية التكوين .

لاشك فى أننا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة تعليلا طبيعياً . فانك اذا تخيلت قبيلة من القبائل بدأت هجرتها من أواسط صحراء « التبت » مثلا متجهة نحو الغرب ، واردت أن تعرف أى عناصرها الأقوى ، على فرض أنها أخذت تهاجر مستمرة فى هجرتها الى آخر مدى يمكن أن يبلغه افرادها ، فلاشك فى أنك تحكم بان أقل افراد ها قوة هم الذين يقفون عند حدود فارس وأوسطهم الذين يبلغون العراق وأشدهم الذين يجتازون مضيق البوسفور . تجربة طبيعية تدل على صفات كامنة . وهى أن دلت فى أول ما تدل عليه على صفات جثمانية فائقة ، فهى راجعة الى صفات نفسية أيضاً . الى صفات الاقدام والشجاعة والتغلب على المخاوف ، تلك الصفات التى لا يمكن أن تبرئها من أثر القوة العقلية أو تبرى القوة العقلية منها . فاذا رجعنا الى المستكشفات الحديثة فى علمى الانسان والشعوب واعتمدنا على ما وصل اليه العلم فيهما ، وفرضنا أن الانسان نشأ فى أواسط آسيا ، استطعنا بنظرة واحدة فى توزيع الشعوب البشرية فى آسيا وأوربا أن نثبت هذه الحقيقة . ففى الطرف الغربى من

أوروبا أرقى أمم التيوتون والانجلوسكسون . يناظرهم في الطرف الشرقي من آسيا أرقى أمم المغول . بريطانيا العظمى من ناحية . واليابان من ناحية أخرى . ولقد فازت الاولى في ثلاثة قرون بحكم الدنيا . ومن ذا الذي يعلم ماسوف يتجلى عنه مستقبل الثانية .

هذه الحقيقة التي لا ينازع فيها هي السر في تقدم الغرب وتأخر الشرق . وانك لتجد أن صفاء العقلية يتدرج من حدود روسيا الى الجزر البريطانية ومن حدود بغداد الى اليابان . بل انه يتدرج في سلسلة عجيبة من الحلقات المتتابعة .

اذا أدركنا هذه الحقيقة عرفنا لماذا ارتقى الغرب ولماذا ترك الشرق غارقاً في بحار الدينية مستسلماً الى الآخرة مستنيما لحكم الفقهاء والأمراء المستبدين بأمرهم الممثلين لله فوق الأرض . فكرات حملها المقدمون فصارت لهم تبعاً ، وغرق في بحارها الجامدون فصاروا لها تبعاً . هذا كل ما في الامر .

ولكن هل يمكن لمن ظل جامداً من شعوب الشرق وورث عن النشأة الاولى موحيات اللاهوت البدائي ، أن يتحلل العقلية المرنة التي دفعت باهل الشرق الاقصى الى المحيط الهادي ، ولولاه ماوقفت هجرتها ، ورمى باهل الغرب إلى بحر الظلمات ولولاه لما صدها عن الاقدام صاد ولا حال دون هجرتها حائل ؟ لا اعتقد أن هذا من المستحيلات ، بل أعتقد أنه اهون الممكنات . ولكن بعد بضعة تجاريب بسيطة . هزات عنيفة تحرك الجمود ، ودماء تراق في سبيل العتق ، وثورات طاحنة ، كانت ثورة الاتراك أولاها ، وثورة الأفغان ثانيتها .

هذا هو التعليل الصحيح للمبررات التي جعلت لقولة « ولز » ذلك الصدى العميق . وهي على مافيها من بساطة التركيب ، مبررات على كل حال . ولكنها لا تقوى على مقاومة التحليل التاريخي على ما أرى .

ولست أريد أن أستعمق بعد هذا التحليل في البحث والتنقيب . فالحقائق بينة والطريق ممهود ، لولا بعض عقبات ليس تذليلها في حيز المستحيل . لهذا نترك البحث لنمهد لك طريق الدخول لاستيعاب العقلية التركية الحديثة التي هي في معتقدي مثال العقلية السليمة في الشرق الاوسط أو الشرق اللاهوتي ، وارث الجمود والاساطير .

. . .

الخلافة

مامن شبهة تقوم فى عقل المؤرخ فتورثه الحيرة والارتباك ، أكبر من تلك الشبهة التى يحاول أن يتخلص منها فى كل مدرج من مدارج التاريخ البشرى إذ هو مكب على رواية حوادثه ، شبهة أن المدارك الانسانية ناقصة وأن النفسية الضمامية أى نفسية الجماعات ، نفسية بدائية فيها غرارة الفطرة الاولى ، وسذاجة الطفولة ، وضعف الخنوثة واستكانة الرق والعبودية .

هى لدى الواقع حقيقة ثابتة تقوم فى عقلية المؤرخ لابسة صورة شبهة أو شك مبهم غامض ، ذلك لأن المؤرخ ان استطاع أن يدرك حقيقة البشرية على صورتها الصحيحة ، فهو أول شىء مغلول الفكر بأنه أحد أفراد بنى الانسان ، إن شك فى مداركهم فقد شك فى مداركه ، وإن أنحى عليهم بالنقد فهو بدياً ينتقد شيئاً هو جزء منه ، وقطعة لايمكن أن تنفصل عن أصلها إلا الماماً ، لتعود اليه مرة أخرى بقوة جذب خفية عميقة الأثر فى تصاريف الحيوان الناطق .

هو يعلم بأنه مكب على رواية سخافات جديرة بأن يكون الانسان خالقها من العدم وسفاسف ماقامت فى عالم الحياة إلا بقيام الفكر البشرى مسوداً على مافى الحياة من صور . ثم هو بجانب هذا يحاول دائما أن يستمد من الخيال قوة يستقوى بها على منازع النقد ليخفى الحقيقة عن نفسه أولا ، ثم يحاول اخفاءها فيما بعد عن بقية الناس .

هو يعلم أن كثيراً من النظامات البشرية نظامات بربرية وحشية ، وأن خضوع الجماعات لهذه النظامات بحكم العادة أحد مناقص الطبيعة الانسانية ، وجزء لاينفصل عن طبيعة الضعف الكامن فى قلب الانسان ، ولكنه مع هذا يحاول أن يجد لهـــذا الضعف مبرراً ولتلك المناقص أعذاراً واهية ساقطة ، بله الدفاع عن نظامات ان دلت على شىء ففى أول ماتدل عليه نقص فى الفطرة وميوعة فى طبيعة الاشياء الانسانية ، هى لدى الواقع إحدى المكونات الاولية التى استحدثت ماندعوه بالتاريخ الانسانى

هو يعلم أن الاوهام هى التى شيدت معابد الكلدان ومصر ، وانها هى التى الهت بوذا وكونفوشيوس ، وانها هى التى اقامت الاهرامات ، وان هذه النظامات بعد ان استمدت من الاوهام اصلا قامت عليه ، أخذت تعمل على ان تمد من أجل الاساطير

وتطيل من عمر الخرفات . ومع ذلك فهو يحاول أن يدافع عن أشياء اساسها الوهم وأصلها الخيال .

هو يعلم أن نظام المنكية نظام مستمد من أصول وحشية أولى ونظامات بدائية قيامها فى العصر الحاضر بمثابة الاحافير تقوم فى باطن الارض برهانا على ان صورا من أمثالها عاشت على الارض فى عصر من العصور ، ومع ذلك تجد المؤرخ يحاول الدفاع عن هذا النظام ان كان فى نظام ملكى ، كما يدافع عن الجمهورية اذا كان فى نظام جمهورى ، وعن الفوضوية اذا كان فى نظام فوضوى ، على سعة مابين هذه النظامات من تباين وأختلاف .

هو يعلم أن نظام الخلافة نظام فاسد ، كما كان نظام البابوية فى روما ، ولكنه مع ذلك يحاول ان يستمد من التاريخ مبررا له ، أو يعمد الى القول بانه نظام ليس من روح الاسلام فى شىء .

شبهات وشكوك وابحاث ضائعة ، فيها من المواربة واللف ماتغنى عنه كلمات وجيزة ، واسطر معدودة . شبهات وشكوك اول باعث عليها شعور عميق بما فى النظامات الانسانية من نقص ، لا يبعد أن يكون فى العقل الانسانى نقص يناظره ، به يبعد الناس عادة عن رؤية الحقائق كما هى ، أو كما هى واقعة

صدر كتاب « الاسلام واصول الحكم » فحاول صاحبه أن يثبت أن الخلافة ليست من نظام الاسلام فى شىء وعمد الى أقوال المعاصرين فى صدر الاسلام والى الاحاديث . وهى أقوال وأحاديث ان دخل الشك فى شىء فهى أول مادخل فيه الشك ، وان تناوبت الشبهات على شىء فهى اول ماتناوبت عليه الشبهات . يعمد الى هذا ليبرر الغاء الخلافة . فهو فى ذلك مثال المؤرخ تشابهت عليه الحالات ، وقامت فى نفسه مشاعر ملؤها الاعتقاد بالنقص الانسانى وخضوعه للاوهام ، فحاول ان يستمد من غير الواقع اوجه دفاع عن النفس الانسانية اولا ، ثم عمد بعد ذلك الى تقرير مايخالف الواقع ارضاء لمنازع فئات هو يعتقد أنها مخطئة وأنها على ضلال . ولو أنه ترك كل هذا وقال ان الخلافة نظام ورث عن الاسلام ولكنه لايوافق روح العصر ولاحاجات الزمان الحاضر ، لوجد انصاراً من نفس الذين يخالفونه فى رأيه الاول مصوباً فى القالب الذى صبه فيه ، ولكان

أقرب الى الحقيقة ، وأقرب لفضائل المؤرخ تخلص من شبهات الوهم التى تقوم فى الذهن عادة لدى التفكير فى نظام الجماعات .

ولسنا نريد أن نفتح بابا جديدا يلجه المؤرخون و يأخذون بتلابيبنا كما يفعل الأدباء فى مناقاشاتهم الأدبية ، قائلين اين الحجة التى تؤيد بها أن الخلافة أصل من أصول الاسلام ؟ والحقيقة أن الخلافة ليست أصلا من أصول الاسلام ، ولكنها كما قلنا نظاما ورث عن الاسلام فى نشأته الأولى . فان محمداً كان نبيا ومشرعا وقائد جيش ومقيم امبراطورية وملكا غير متوج على معنى الملكية قديما وحديثا ، بل حصرت فى شخصة قوة السلطتين الروحية و الزمانية . وعلى هذا النظام سار الخلفاء الراشدون من بعده ، وعنهم ورثها معاوية فى الشام ، والعباسيون فى بغداد ، والفاطميون فى مصر ، والعثمانيون من بعدهم .

اذن فالخلافة «نظام» اسلامى مأخوذ من روح الاسلام ومن تقاليده الموروثة التى قام عليها فى نشأته الأولى . وكان لزاما على الاسلام أن يحصر السلطتين فى يد موجده أولا ، فى عصر كثرت فيه الفتن و قام العرب يناوئون الاسلام والمسلمين . فلما مهدت الحروب الداخلية سبيل الحياة بعد انتصارات أيدته ورث النظام وعليه سار الاسلام والمسلمون

لهذا نعمد إلى مؤرخ ثبت نقل عنه قطعا نثبت بها أن الاسلام كل لا يتجزأ ووحدة لا تنفصم عراها ، وأن الخلافة باعتبارها نظاما أسلامياً لابد من أن تكون أحد أجزاء السلسلة التى تكون عقد الاسلام

نعمد إلى العلامة كارل . ه . بيكر Carl. H. Becker وزير الفنون والعلم والتربية فى ألمانيا - ١٩٢٧ - وهو أحد مشهورى المستشرقين . أما ابحاثه الاسلامية فتعتبر من أدق المباحث واطلاها وأكثرها ابتكارا وأعمقها فكرة وأصحها سندا . ولقد ترجم كتابه المعروف « فتوحات العرب » إلى الانجليزية وضمته جامعة كمبردج إلى مجلداتها التى تخصصها لدراسة تاريخ القرون الوسطى - ١٩١٢ - وله مجلة ذات شهرة واسعة اسمها الاسلام - Der Islam - تكاد تكون المحور الذى تدور من حوله كل الابحاث المبتكرة فى تاريخ الاسلام ونبعا فائضا للتنقيب المنتج فى

أخص المسائل التي تتعلق بالمدنية الاسلامية . اما مانقله هنا ، فمن مقالة له تحت عنوان « الاسلام في التاريخ » نشرت في مجلة « الأمم » التي صدرت في شهر فبراير سنة ١٩٢٧ : قال:

« تستعمل لفظة « الأسلام » عادة في كثير من المعاني المختلفة. نقد نستعملها لتدل على دين الاسلام ، سواء أتكلمنا في تعاليم محمد الاصلية ، أم في مجموع المذاهب القديمة التي هو شيء مختلف تمام الاختلاف عن تلك التعاليم ؛ أو في دين المسلمين المعروف اليوم في آسيا وافريقية . وسواء أوعينا في اذهاننا أوجه النشاط الديني التي يبديها الاتراك أو الزنوج ، وسواء اتكلمنا في الغزالي أو في المهدي السوداني . فاننا نستعمل اللفظ ذاته ونقول « الاسلام » . وكلما كانت معارف الناس اقل ، كانوا اشد نزعة الى التعميم . فمن ذا الذي يجرؤ مثلا على أن يصف الاوضاع الكنسية في بلاد الحبشة بانها ذات النصرانية، من غير ان يعرض نفسه للاستهزاء والسخرية ؟ ولاجرم ان القول بان هذه الاوضاع هي بذاتها البروتستانتية للنصرانية ، من غير تعديل أو تكافىء بين الحالات، لابعد عن أن يتورط فيه باحث يزن الاشياء بميزانها الصحيح .

« ولم نكتف بهذا بل استعملنا لفظ « الاسلام » ليدل على احدى امبراطوريات الشرق العظمى ، أوعلى كل الحكومات المتفرقة التي كانت تنشأ عادة على انقاض الامبراطوريات الكبرى وبقاياها ، حتى لقد نطلق الاسم على الحكومات المحمدية التي نراها قائمة في الزمان الحاضر . غير أننا لم نعن « بالاسلام » مجرد الحكومات الفعلية ، بل صرفناه على شيء اكثر من هذا خطرا . فعرفناه على انه نظرية سياسية ، سواء اقامت تلك النظرية على مذهب سياسي أو مبدأ تنزيلي .

« وكلما استعمقنا في بحث هذا الموضوع ، ازددنا اقتناعا بضرورة التفريق بين المدلولات . غير أنه ليس في وسعنا أن نقرر بصلابة أن تعريفاً جامعاً مانعاً يجب أن يوضع لتحديد مايعنى بلفظ « الاسلام » في كل حالة من الحالات الخاصة ، وعلى الأخص اذا عمدنا الى وضع تقديرات معينة للقيم المتناظرة . على ان الباحث الاختصاصي ، مهما جهد نفسه في التحوط والحذر ، ومهما بذل من عناية في استخلاص تلك التحديدات الضرورية ، فانه لامحالة يستعمل تلك اللفظة العامة ـ « الاسلام » ـ على أنه يجب أن

نتساءل ! هل لهذا من مبرر ؟ أو بعبارة أخرى : هل كل المعانى المختلفة التى يجمع بينها هذا الاصطلاح تدخل حقيقة تحت مدلول « الاسلام » عامة ، ذلك المدلول الذى لا يخرج بدياً وتخصيصاً عن أنه دين ؟ غير أن هذا السؤال قد أجبنا عليه مقدماً وحددناه ، اذ قلنا بأن اصطلاح « الاسلام » ومسألته فى التاريخ ، قد استعملناه من غير أن نضيف الى ظاهره مدلولات أخرى . »

« اما وقد حللنا كلمة « الاسلام » ، فاننا بذلك نكون قد جاوزنا النظر فى العوامل الاساسية ، التى اذا أخذت فى مجموعها ، كونت ذلك الشىء الذى نحس بأنه التصور الوحيد الذى يمكن أن نكونه فى « الاسلام » : أي ذلك الايمان الكلى المتماسك الاطراف ، وذلك المثل السياسى الاعلى المتآلف الأجزاء ، وتلك المدنية المتناسقة التى تتمشى فى اجزائها فكرة الوحدة و الائتلاف ، والتى فضلا عما نجد فيها من الاختلافات الموضعية ، تلمح فى مجموعها وحدة المثل العليا ، كما نقع فيها على شىء من الوحدة فى العمليات. وما من شك فى أن « الدين » هو الذى يجمع بين هذه العوامل الشتيتة ، وان الفكرتين السياسية والمدنية ، كليهما ، لم يكونا ليتشرا و يثبتا مع الزمان لولا قيامهما على قاعدة الدين . وكذلك نجد فى الوقت الحاضر أن « الاسلام » رابطة من الوحدة قوية ، عادات فى كل عصور « الاسلام » قوة « القومية » الشديدة الأثر فى النفوس ، فجمعت بين الناس وكونت منهم عصباً أقوى وأشد مراساً . فان زنجياً من زنوج قبيلة « الونغيدو » — Wangido — فى شرق افريقية الالمانية اذا أصبح مسلماً فانه لا يتسمى باسم قبيلته . بل يتسمى بالاسلام (١) ويصبح العربى أخا للزنجى المسلم. وبذلك تتماسك كل الخيوط المختلفة وتتفق كل النزعات المتباينة ، من حول المركز الدينى فى « مكة » . وفى مناوأة أوروبا على الاخص ، تجد أن المسلمين يشعرون شعوراً عميقا بأنهم وحدة متماسكة الاطراف . لهذا يحق لنا أن نتكلم ، مادام أن الدين يصبغ الحياة اليومية بصبغته الخاصة ، إن قليلا أو كثيراً ، فى مدنية اسلامية موحدة الاجزاء. ننقل الى الذهن دائما حقيقة أن هذه المدنية الدينية مؤثر فصل ، يقطع بين حدين قطعا تاما .

---

(1) Missions - Blatter (journal of the st. Benedictus - Missions - Genossenschaft, st. Ottilien) XIII, Heft 9 P. 130.

« وهذه الحالات . التي لانشك مطلق الشك فى أنها لاتزال قائمة حتى اليوم ، قد زادت الى صعوبة الفهم لدى البحث فى تاريخ نشوء الاسلام . واذ نعرف أن الدين الى الوقت الحاضر مايزال العامل الاقوى الذى تقوم عليه كل الاشياء الاخرى مما يتعلق بالاسلام والمسلمين ، وإذ نرى أن كل الظاهرات التاريخية الخاصة بالاسلام يجب أن يرجع فيها الى مؤسس الديانة ، فاى شيء يمكن أن يكون أقرب الى البديهة من أن نعتبر الدين العامل الاساسى أن لم يكن العامل الاوحد ، الذي تعود اليه حقيقة خلق مدنية أسلامية متلائمة الاطراف »

« ولدينا عامل آخر ، نتج عن العكوف على عادة النظر فى الأشياء من وجهة النظر الكنيسية ، تلك العادة التى ورثناها عن القرون الوسطى . ولاجرم أن هذا الاتجاه لايزال ثابتا فى نفسيتنا لدى النظر فى الاسلام ، حتى الوقت الحاضر . فقد اعتدنا فى القرون الوسطى ، حتى فى أوائل العصر الحديث ، أن ننظر الى الاسلام بديا على أنه دين معاد ، وضع حداً لانتشار المسيحية ، وهددها فوق أرضها تهديداً شديدا . وكانت النظرة التى نظر من ناحيتها فى نشوء الاسلام قد انحصرت فى الاعتقاد بأن الدين الجديد قد ملأ صدر العرب حماسة وأفعمها حمية ، وأن المسلمين قد اندفعوا الى الفتح الحربى تحت تأثير الرغبة الشديدة فى هداية أهل الأرض الى الاسلام ، وأنهم انما يعملون على نشر دينهم بالسيف ، وأن محمداً كان نبيا ورجلا سياسيا معا . بل اعتقد بأن الثقافة العربية ممزوجة بالدين الجديد — « الاسلام » — قد كونت تلك الصورة التى تعرف بالمدينة الاسلامية العربية ، وأنه على الرغم من أن عددا من النظامات والفكرات الجاهلية قد استمرت باقية ثابتة الاثر ، فان الدين وحده لم يكن السبب الذى خلق المدينة الجديدة ، بل صورها ونظمها لاغير . اذن فالدين هو القاعدة وكل الصور النشوئية الأخرى ، لم تكن إلا نتيجة من نتائجه . فكان من الضرورى على مقتضى هذه الفكرة ، أن يدمغ الدين طابعه الثابت فى جبين الوحدة الصورية والخلقية . ومن هنا نشأت الفكرة فى مدنية اسلامية متلائمة الاجزاء ، موحدة الاطراف »

« ولا مشاحة فى أن كل باحث يتصل بكتاب العرب وفكره ملىء بمثل هذه الآراء

وبجانبها نظرة غير صحيحة تتكون حول تاريخ النصرانية (١) يجد أنها آراء لها سناداتها ومبرراتها . ذلك لان السلطات المحمدية لها قواعد كهنوتية مقررة مفروغ منها . كذلك تراهم يقررون جملة بأن نشوء الاسلام من خلق محمد ومن ابتكار الخلفاء الراشدين فى عصر الاسلام الذهبى . وعندهم أن الحكومة والمجتمع ، وكذلك الحركتان العلمية والاقتصادية ، جماعها تخضع للقواعد الدينية . وكان المتبع أن يخلع من هذه الارض الدينية التى اعشوشبت بمختلف النظريات . كل نبتة طفيليه يمكن أن تنبت فى جنب من جوانبها وتنبذ نبذاً . إذن فالعالم الاسلامى محكوم بالدين سواء افى ماضيه أم فى حاضرة ، ولو نظريا على الاقل . »

«غير ان النقد الحديث لم يتناول هذه المباحث الا منذ عهد قريب لا يتجاوز بضعة عقود من الزمان ، وعلى الاخص بعد ظهور « تاريخ الثقافة » Kulturgeschichte - الذى ألفه العلامة الكبير « الفرد فون كريمر » Alfred von Kremer . ولقد نجحت الابحاث الحديثة تدرجاً وعلى مر الايام فى أن تتحرر من تقاليد الاسلام ، وعمد البحاث وطلبة العلم ، سواء أفى السياسة والشريعة ، أم فى الدين والحياة ، الى التفريق بين النظريات والعمليات . ولقد حققوا بهذه الوسيلة أن الانتصار فى المعركة التى قامت بين مطاليب الدين ومقتضى العادات القومية ، قد حالف الثانية دون الاولى ، بل أثبتوا أنه فى خلال الصراع الذى قام بين مختلف الآراء المتنابذة ، لم يكن اللون الدينى غالباً الا عبارة عن وضع أدبى ، لا أقل ولا أكثر . ورأوا ان الشريعة الدينية لم تنشأ متطورة عن الاوضاع التشريعية العملية التى كانت قائمة بالفعل ، بل أتت منابذة لها . ومن ثم اتضح ان بناة الامبراطورية العربية لم يكونوا يعملون على نشر الدين كسبب مباشر لفتوحاتهم على اطلاق القول ، بل عملوا ، فى أول ما عملوا له ، على تثبيت سلطة العرب الزمانية وتركيز سيادتهم فيما جاورهم من الامبراطوريات . ولا جرم أن جماع هذا يزود بمادة واسعة

---

(١) يشير الكاتب على الاخص الى ارنست ترولتش Ernest Troeltech فى كتابه

Die Soziallehren der christlichen kirchen (Collected Works Vol. I.)

ويعترف المؤلف بأنه مدين لهذا المؤلف بكثير من الفكرات التى عنت له فى خلال هذا البحث من قراءته لهذه القطعة وغيرها من القطع المتناثرة خلال هذه المجموعة

تشبع تهم الفكر . لهذا يحق لنا أن نتساءل ، حين نواجه هذه الحقائق ، اليست فكراتنا التقليدية التي ثبتنا عليها في حقيقة الدور الذي لعبه الدين كعامل من العوامل المكونة في الاسلام ، تحتاج الى تعديل وتحتاج الى اصلاح ؟ ،

و بعد فان هذه الشروح و التحليلات القيمة لاتترك للمؤرخ الذي يريد أن يفهم الحقائق على صورتها الصحيحة مجالا للشك في أن الوحدة الاسلامية من ناحية ، وان بناة الامبراطورية العربية لم يكونوا يعملون على نشر الدين كسبب مباشر لفتوحاتهم من ناحية أخرى ، كلاهما دليل صادق على أن الخلافة نظام ورث عن الاسلام ، لانها من ناحية جزء من نشأته الاولى ، ومن ناحية أخرى أساس قامت عليه الفتوحات ، وتكونت من فوقه دعائم لامبراطورية العربية . وهذه الحقيقة التي حاول مؤلف كتاب « الاسلام وأصول الحكم » اخفاءها ، نقررها هنا على الضد مما ذهب اليه ، ثم نحكم من بعد ذلك بأن نظام الخلافة نظام فاسد لايتفق وروح هذا العصر

***

لم يبق بنا من حاجة لان نثبت ان الخلافة نظام اسلامي ورث عن بدايته الاولى . ولكن بنا حاجة لان نحلل نظام الخلافة ، ثم نعقب على ذلك بالكلام في موافقة هذا النظام للروح الجمهورية الديمقراطية التي اصبحت طابع هذا العصر .

الخلافة نظام شاذ كل الشذوذ . ليس هو بسلطة روحيه فقط . ولاهو بسلطة زمانية فقط . هو نظام يجمع بين السلطتين ومزيج من قوتين يجب ان تظلا مفترقتين . هو نظام الدنيا والآخرة حصر في يد فرد واحد ، فكان الحاكم بامره في الناس ، وظل الله فوق الارض معاً . خليط من حقيقة واقعة وأسطورة موروثة . سلطة لامسلط لها ، وقداسة لاسر فيها . وميراث عن بدايات كان لابد للاسلام أن يقوم عليها ، ظلت قائمة في عصور اصبح فيها ذلك الميراث عاملا من عوامل الضعف في الاسلام . ومركز للتعصب لامبرر له . وبورة تشع منها مفاسد الفقهاء ، فكانت على الاسلام حربا وعلى المسلمين شواظا من نار . قوة حصرت في يد ، وكان في الواجب ان توزع على أيد تتعاون على تسنم مدارج الحضارة . وفكرة تحجرت فتحجرت من حولها العقول وعميت البصائر . لقب في غير موضعه ، وتاج مثل الارض والسماء . وصولجان

كانت كرته العالم الاسلامى وفيه ثلاثمائة مليون من النسمات البشرية ، استعبدتهم الاماء والسرارى ، ومن ورائهن الفقهاء . جمود لاحركة فيه والفلك يدور . وظلام لاضياء فيه ، والدنيا يتناوب عليها الليل والنهار . قمع للفكر واطلاق للشهوة . كبت للضمائر وحرية للاوهام . تمثيل للاسلام ثم تمثيل بالاسلام . فناحية للبناء فى الظاهر ، وأخرى للهدم فى الحقيقة .

والخلافة فوق ذلك نظام ورث ظاهره وترك لبه . فاصبحت ميراثا ، بعد أن كانت بالبيعة فرصة انتهزها الانتهازيون من الفاتحين ، والمخاطرين من اللاعبين بمستقبل الشعوب فحصروا فى يدهم سلطتين بعد سلطة واحدة ، ورموا بسهمين عن قوس واحد . ثم ورث ما استولى عليه الانتهازيون المجازفون ، فكان الميراث مقدساً كأصل الفكرة . وكل مقدس معبود على كل حال .

ولقد أوسعت هذه الحال مجال النفاق والكذب والترهات . بل فتحت المجال لفجرة آثمين أن يكونوا يوما خلفاء يحملون اسم الملك واسم الله . فابناء غير شرعيين بحكم الدين صريحاً ، وقتلة آثمون منهم من قتل أباه ، ومنهم من قتل أخاه ؛ ومنهم من قتل أعمامه وأخواله ، استطاعوا يوما أن يمثلوا محمداً عليه السلام فوق الارض ، وان يمثلوا الله تعالى فى السماء .

ولم يكن فى هذا النظام من سر سحرى جعل الناس يخضعون له خضوع العمى الذين لايبصرون ، الا إهالة من القداسة حوطه بها فئة العلماء والأئمة والفقهاء . فانهم بعد ان اقفلوا باب الاجتهاد فى الشريعة ، اقفلوا باب الاجتهاد فى أختيار أصلح أنواع الحكم المساير لطبيعة الحالات . وبذلك تم لهم اخضاع العالم الاسلامى ، ومضى المسلمون يتوارثون هذا النظام جيلا بعد جيل . فلما علا مد الحرية على الشعوب الشرقية ، بان لاهلها أن هذا النظام مهما يكن فيه من روح الاسلام ، فانه غير ملائم لطبيعة الحالات والمقتضيات السياسية والاقتصادية . لهذا الغى بثورة طاحنة ، فكان لخير الشرق والشرقيين الغاؤه . ولاجرم أن سلطة الفقهاء أخذت تتضاءل من بعد ذلك ، ولن يمضى زمان طويل قبل أن يتقلص ذلك الظل الكالح الذى حال معه لون الشرق وحال بينه وبين الضياء . لولاه لقاد الشرق العالم إلى حضارات جديدة ، والى صور من الرقى لم يألفها العالم حتى الآن .

و بعد . فليس لنا أن نتورط فى البحث لا كثر من هذا . فان العوامل التى أثرت فى عقلية الشرقيين وحالت بينهم و بين الار تقاء معدودة معروفة . ولكن هذا لا يحول دون القول بأن الشرق قد خطا بالانسانية من العصر اللاهو تى الى العصر الميتافيزيقى ، وكان لا بد دالف بقدمه يومياً الى العصر اليقينى ، لولا تلك العوامل السوداء .

ان هذه الاشياء نماذج عقلية فصلها « كونت » في فلسفته أحسن تفصيل . وهى فوق ذلك نماذج لها تدر جاتها الدقيقة المتعاقبة التى لا يمكن أن يبلغ الانسان الهافجاءة ، بل تدرجاً و بتهيئة ظروف وحالات لا يمكن أن تدرك كيف تنشأ ولا كيف تتكون فى تضاعيف الفكر البشرى .

إن العقلية الاور وبية الحديثة لم تكن نموذج الفكر قبل ثلاثة قرون . و الدليل على هذا أن العقلية الاسيوية قد انتحلها الاور وبيون من أهل النصرانية الى عصر كو برنيكوس وغاليليو . نعم انها لم تؤثر فى الوار ثات الاجتماعية ، ولكنها أثرت تأثير ها البالغ فى الفكر الأور وبى . لهذا نترك البحث فى هذه العوامل لرسالة أخرى نعقدها فى مثل العقيلة القديمة فى الشرق والعرب .

حرية الفكر

قد يخيل الى الذين يمعنون فى درس هذا الكتاب ، والوقوف عند مرامية وقفات تأملية طويلة ، أن الشرق قد تحر ر فكره بالفعل ، بقيام بعض زعماء يدعون الى الحرية الفكرية ، أو قادة قضوا على بعض التقاليد القديمة التى كانت حائلا بين الشرق و بين الارتقاء .

نعم . لا تنكر أن الارتقاء أصبح معبود فئة من رجال الشرق خصوا بارقى المميزات الانسانية ، وأنهم فى ذلك قد جاروا الغرب وانتحلوا عنه أساليبه التى اتخذوها وسيلة للارتقاء . غير أنا لا يجب أن ننسى أنا مع هذا قد و رثنا عن الغرب جمود أهل المذاهب ، والظاهر أنه من المستحيل على العقل البشرى فى حالته الحاضرة أن يتخلص من المذهبية على وجه عام .

(البقية فى العدد الآتى)